

اضطرابات التواصل داخل الأسرة الجزائرية

د .توهمي سفيان

جامعة سعيدة

د جدوي زهية

جامعة سعيدة

مقدمة:

سنحاول التطرق إلى بعض المعطيات حول تأثيرات الأسرة على حياة المراهق الاجتماعية ،تأثيرات على علاقاته الاجتماعية وتواصله بأقرانه والأشخاص المقربين إليه، تواصل يمكن وصفه بأنه يغلب عليه السلوكات العدوانية أو الانسحابية .

صحيح أن الأسرة هي اللبنة الأساسية لكل مجتمع ،وعلى عاتقها تقع مهمات حساس في تربية الأبناء وزرع القيم النبيلة فيهم ،وأكد لا تخفى علينا أهمية الأسرة ودورها العظيم في تشكيل شخصية الأبناء خصوصا في المراحل المبكرة من الطفولة، ولكن أحيانا تكون هذه الأسرة سبب معاناة وألام الأبناء بسبب أساليبها التواصلية معهم، وهذا ما يشير إليه اريكسون بشكل لا يدع مجالا للشك ، إلى أن المصدر الأساسي للمعاناة الفردية وشدة الصراعات الاجتماعية يكمن في تخويف وقمع الطفل من خلال الراشدين .(بيتر كوزن،2010: 190)

وأيضا يشير اريكسون إلى مرحلة الثقة في مقابل عدم الثقة خلال السنتين الأولى والثانية من عمر الطفل، ودور الأم المهم في تلبية رغبات الطفل وإشباع حاجاته النفسية من حب وحنان ورعاية، وهذا ما يجعله يكتسب مقدارا من الثقة يؤهله لأن يندمج في الحياة ويستقبل العالم الخارجي بكل ثقة

(Pierre Coslin , 2002 :115)

أيضا يعتبر مصطفى حجازي وغيره من الباحثين أن الطفل المعاني هو نتاج سعيد لأسرة سعيدة، والطفل المريض هو نتاج غير سعيد لأسرة غير سعيدة. (مصطفى حجازي، 2004: 169)

وهنا تكمن نواة الصحة النفسية، بمعنى أن أي اضطراب يمس هذا الطفل يجب أن نبحث عن بداياته في الأسرة، أي أن أسس المرض والصحة تتوفر لدى الأسرة، من خلال العلاقات الأولية التي تربط هذا الطفل بأمه، بأبيه، بإخوته، بالمقربين به، ويمكن أيضا البحث عن أسس الاضطراب في العلاقات حتى ما قبل الميلاد، فعلاقة الطفل بالأم ليست مجرد علاقة بيولوجية لتلبية حاجات الأكل والشرب... وإنما هي علاقة حيوية تفاعلية، وهذا ما بينته بعض الدراسات حيث أن حرمان الطفل من إشباع حاجاته يؤدي به إلى القلق والاضطراب النفسي وفقدان الثقة وقد يؤدي أيضا إلى ظاهرة الانحراف .

(خليل ميخائيل معوض ، 2003 : 182)

ومعنى العلاقة يقودنا إلى تعريف الاتصال حسب المدرسة النسقية palo Alto والتي ترى أنه تعبير عن علاقة ، وحسب هذه المدرسة فإن كل سلوك هو اتصال ولا يمكن الفصل بين المفاهيم الثلاثة سلوك، علاقة، اتصال، والاتصال يمتد ليشمل مجموع التصرفات حتى غير اللفظية منها.

وهذا يظهر في المقولة الشهيرة ل والتزلاويك 'لا يمكننا إلا أن نتواصل '.

(153 : Gustave Nicolas Fisher ,2005)

فالالاتصال هو مجموع العلاقات التي يعقدها الفرد أو الطفل مع الآخر هذا الآخر الذي يكون الأسرة باعتبارها الجماعة الأولية في حياته وبالتالي استحالة دراسة اضطراب هذا الطفل أو المراهق أو دراسة علاقاته الاجتماعية في معزل عن الأسرة ، دون الرجوع إلى علاقاته داخل النسق الأسري ، لأنه وبطبيعة الحال ولد في أسرة وهو ينتمي إليها ويتفاعل مع أفرادها ، ويعقد معهم علاقات بغض النظر عن سلامة هذه العلاقات أو اضطرابها .

وتصف ايفلينسيبرج Evelyne Sieburg من يحاول دراسة اضطراب فرد من الأسرة في معزل عن بقية الأفراد كمن يحاول دراسة سيارة وفهمها من خلال تناول كل جزء فيها على حدة بقولها أننا قد نستطيع بهذه الطريقة معرفة بعض الأشياء عن السيارة لكننا سوف لا نعرف أهم مظهر على الاطلاق ألا وهو معرفة كيف تعمل هذه الأجزاء معا .(علاء الدين كفاي ، 1999 : 85).

وهذا ما قادنا من خلال هذه الدراسة إلى محاولة معرفة بعض اثار اضطرابات التواصل الأسري على علاقات المراهق الاجتماعية، وقد كانت اشكاليتنا كالتالي : ما تأثير سوء الاتصال الأسري على علاقات المراهق الاجتماعية ؟.

وكتوضيح لبعض اضطرابات التواصل حسب المدرسة النسقية ،فهي ترى أن هناك بعض الأساليب المستعملة في التواصل الأسري من شأنها أن تكون مولدة للمرض النفسي عند الطفل منها :

مشكلة وضع علامات الوقف: وتعني وجود اختلاف في تفسير وادراك ما يعتبر استجابة حسب كل طرف، بمعنى أن المشكلة هنا هي مشكلة ادراك أي كيفية إدراك الرسالة ، ونحن نعلم أن ادراكاتنا تتأثر بالحالة الانفعالية وأحسن مثال على ذلك اختبار الروشاخ واستجابات الأطفال الجوع التي كانت تدل على الطعام في حين أن لوحات الروشاخ لا تدل على الطعام .

العلاقة التبادلية الكاذبة: وهي علاقة تبدو في ظاهرها أنها تتسم بالعطف والتواد والصراحة ، لكنها في الحقيقة غير ذلك فهي جافة وجامدة وتقوم على تفاعل خاطئ قوامه الكذب .

ميكانيزم التعمية: يعبر عن حالة مرضية تصيب الأسرة يتم فيها تزيف المشاعر ، كأن ينسب الأب لنفسه مشاعر لم يحس بها يوما ويقنع بها أولاده ،أو أن ينسبها إلى فرد اخر ، كأن يقول له أنت سعيد وهو غير سعيد .

المثلث اللاسوي : وهو عبارة عن تكتلات أو تحالفات يقوم بها أحد الآباء سواء الأم أو الأب مع الأبناء ضد الطرف الآخر .

اضطراب اتصال اللغة : قد يعتمد الآباء إلى استعمال اللغة في غير معانيها وأماكنها الحقيقية ، كأن يعلموا أبناءهم التعبير باللغة عن العنف ، أو أن تتسم أحاديثهم بالتهويل والمبالغة وأساليب التهرب من مواجهة المواقف وهذا ما يمهد للانسحاب المرضي لدى الأبناء .

اتخاذ كبش القداء : ويقصد بها إزاحة الغضب والعدوان وإسقاطه على فرد آخر من الأسرة يكون متسماً بالضعف والدونية بغرض تفريغ التوترات.(علاء الدين كفاي ، 1999 :148)

بعض الاعتبارات المنهجية :

من خلال هذه الدراسة التي انطلقنا فيها من إشكالية أن اضطرابات التواصل داخل الأسرة يمكن أن تؤثر سلباً على علاقات المراهق الاجتماعية والتي حاولنا فيها دراسة 10 حالات مراهقة ذكور واناث تبلغ اعمارهم من 13 الى 17 سنة متمدرسين تم اختيارهم بمساعدة المساعدات التربويات والأساتذة في المدرسة .

أيضاً بواسطة استمارة مكونة من 60 سؤالاً والتي بينت وجود مشاكل تواصلية لدى هؤلاء المراهقين ، وقد تم التوجه فيما بعد الى أسرهم واجراء عدة مقابلات معهم .

وبالطبع قد اعتمدنا على المنهج العيادي وبالضبط على منهج دراسة الحالة لأن هدف البحث هو التعرف على أساليب التواصل الخاطئة في الأسرة والمسببة للاضطراب النفسي ، أو لاضطراب العلاقات الاجتماعية ، وقد اعتمدنا على المقابلة العيادية نصف الموجهة والملاحظة .

نتائج الدراسة :

بينت الدراسة أنه فعلا توجد مشاكل علائقية وتواصلية في الأسرة .

- أولى هذه المشاكل هي مشاكل مالية ، حيث أن أغلب هذه الحالات هي من عائلات فقيرة وأن الأم هي من يتكفل بإعالة الأبناء من خلال العمل سواء كمنظفة أو في الحمام أو حتى كأستاذة .

- ضعف المستوى التعليمي لأغلب الأسر (الوالدين)

- الأب عاطل عن العمل أو يعمل لتلبية حاجاته هو فقط ، وبعض الأبناء مدمنون على الخمر والمخدرات .

- أب عدواني ومتسلط ويقمع رغبات الأبناء والزوجة ، مهمل لواجباته المنزلية وقد يصل الأمر إلى حد الضرب .

- عدم الاستقرار العائلي لبعض الحالات واختلاف الأساليب التربوية بين قسوة الأب وإهمال الأم وتدليل الجد أو الجدة .

- بعض الحالات لديها إمكانية المرور إلى الفعل أو ما يعرف بالتفعيل Acting Out بمعنى نوع من العدوانية الموجهة إلى الذات أو الآخر ، نتاج بروز وخروج المكبوتات .

- البعض الآخر من المراهقين لديهم عدوانية ظاهرة مع الآخرين خصوصا زملاء المدرسة وهذه العدوانية تنفرهم من الآخر وتمنعهم من عقد علاقات اجتماعية وطيدة .

- والبعض الآخر انسحابي وينعزل عن الآخرين ولا يقيم علاقات تفاعلية عميقة مع الزملاء .

-أغلب الحالات لديها انتماء أسري ضعيف فأغلبها كانت لها محاولات الهرب من المنزل أو الرغبة في الهرب منه لشعورها بالاضطهاد حيناً أو الإهمال في الحين الآخر .

- أحيانا انهمار للنموذج السلطوي للأب وتعرضه للسب من طرف الأبناء .

- التمييز ما بين الأبناء في المعاملة .

- الجفاء العاطفي بين الزوجين والانحلال الخلقي للزوج (البحث عن نساء خارج إطار الزواج) .

تحليل النتائج :

- إن التقلصات والتغيرات التي طرأت على الأسرة من ممتدة إلى نووية سببت خلافا واضطرابا في الأدوار.، فأغلب الأسر الزوجية هي من تعمل وهي من يعيل العائلة ، أيضا هناك انهيار للنموذج السلطوي للأب الذي كان مسؤولا عن اقتصاديات الأسرة والذي كان يمارس نوعا من العنف الممنوع باستعماله لسلطته ، وبما أنه لا يلي حاجات الأسرة المالية فإنه لا يمثل هذا النموذج وبالتالي عدم احترامه من طرف الأبناء .

- أيضا انهيار للنماذج الأبوية حيث يرى كستمبرغ Kestenberg أن المراهقين في هذه المرحلة هم في حالة بحث عن مثال أعلى للأنا . عن صورة مرضية عن أنفسهم ، صورة قادرة على أن تحمل لهم الدعم الترجسي

- (21 : 1994 , Marcelli D et BraconnierA)

فعدم تصريح الحالات حقيقة بعدم عمل الأب وإعطائهم مناصب راقية في مؤسسات وعدم ذكر أنهم من مدمني المخدرات أو الخمر تدل على وجود ميكانيزم إنكار ورفض لهذه الصورة الأبوية ، وما هذا إلا إسقاط لتلك الصورة المثالية التي كان يتمنى هذا المراهق أن تكون في أبيه .

عدم الاستقرار العائلي وتغيير المنازل وتغيير حتى الأساليب التربوية والتأرجح ما بين الليونة والقسوة يؤدي إلى اضطرابات نفسية . وبعض الحالات لها تماهي بالمعتدي أي أن الصورة القاسية والأسلوب العنيف المستعمل من طرف الأب ينطبع لا شعوريا في نفسية المراهق وهذا ما يفسر عدوانية بعض المراهقين ، وقد استخدم كورت لوين مصطلح إحباط بالتعاقب مع

عدوان كثيرا للدلالة على أن عدم اشباع الحاجات يؤدي إلى إحباط والإحباط يؤدي إلى عدوان (رولان دورون و فرانسواز بارون، 1997:493)

- أم سلبية خاضعة غير فعالة ، وغير محتوية للأبناء (تسعى وراء لقمة العيش فقط)
واهمال لإصلاح الصورة الابوية .

- رغبة الحالات في الهرب تعكس مشكلا علائقيا ، ويترجم الهرب عادة بالابتعاد عن التوتر والقلق الذي يعيشه المراهق داخل أسرته ومحاولة لفت انتباه الوالدين لما يعانيه

- أغلب الحالات لديها مفهوم ذات سلبية ، وهذا مايفسر عدم القدرة على عقد علاقات اجتماعية جيدة مع الآخر ، حيث يرى صالح محمد علي أبو جادو أن تقدير الذات الايجابي يتكون منذ الطفولة وهو يعتمد كثيرا على نوع وطبيعة العلاقات العاطفية التي تربط الطفل بوالديه ، فإذا أحس هذا الطفل بدعم وحب والديه فإن هذا سيجعله يحس بالأمان الذي يخول له احتضان العالم بكل ثقة، ومن ثم تبدأ كفاءاته وإنجازاته في الظهور لتحقيق رغباته واستكشاف المحيط من خلال مختلف أنماط العلاقات خصوصا في المراهقة . (صالح محمد علي أبو جادو، 2007 : 455)

إذن النمو الاجتماعي في المراهقة يتأثر كثيرا بالتنشئة الاجتماعية في الأسرة، وكلما كانت بيئة المراهق ملائمة يسودها الحب والتفاهم والحوار كلما ساعده ذلك على أن يكون علاقات اجتماعية متوافقة .

المراجع :

1 - بيتر كوزن، (2010)، البحث عن الهوية، ترجمة سامر جميل رضوان، الامارات العربية، دار الكتاب الجامعي، ط 1 .

2 - خليل ميخائيل معوض، (2003) ، علم النفس الاجتماعي، القاهرة، مركز الاسكندرية.

3 - علاء الدين كفاقي، (1999)، الارشاد والعلاج النفسي والاسري، القاهرة ، دار الفكر العربي، ط1.

4 - رولان دورون، فرانسواز بارون، (1997)، موسوعة علم النفس، تعريب فؤاد شاهين، بيروت، عويدات للنشر والطباعة، ط1.

5 - صالح محمد علي ابو جادو، (2007)، علم النفس التطوري، الطفولة والمراهقة، عمان، دار المسيرة ، ط 1 .

6- Pierre Coslin,(2002), Psychologie de l'adolescent, Armand Colin, Paris .

7 - Gustave Nicolas Fisher, (2005), les concepts fondamentaux de la psychologie social, Dunod, 3eme éd.

8 - Marcelli D et Braconnier A,(1994) , Psychologie de l'adolescent, ,Paris ,Masson, 2eme éd .